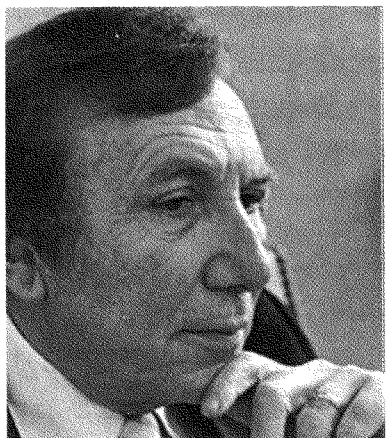

نزار قباني

سهيل ادريس

حين طُرِح عليّ وعلى الدكتور محمد يوسف نجم مشروعُ تكريم الشاعر الكبير نزار قبّاني، حَرِصتُ على أن أشارك فيه ولو بشهادةٍ موجزة أقدِّمها للكتاب الذي سيُنشر بهذه المناسبة.

ولكنّني ظللت أُرجئ كتابة هذه الشهادة، كما أرجئ كتابة أيّة مادّة إلى المهلة الأخيرة، حتى بلغني ـ وأنا في دمشق أحضر معرض الكتاب العربي في أيلول (سبتمبر) الماضي ـ ذلك النبأُ المؤلم عن إصابة نزار بأزمة حادّة في القلب. وقد أبلغني النبأَ شقيقُهُ «مُعتزّ» بلهجةٍ أوحت لي باليأس، فانفجرتُ باكياً كالأطفال، وأخذتُ أتسقّط أخبار الصديق الكبير من أقاربه في لندن، ولاسيّما ابنته هدباء، وفي دمشق حيث أقمت على جَزَع ورعبٍ طوال أيّام، والأخبارُ تتناقض عن صحّة نزار بين ما يدعو إلى التشاؤم حيناً والتفاؤل حيناً آخر.

وكان من الطبيعيّ أن أكفّ عن التفكير في كتابة تلك الشهادة... لأنضمّ إلى مئات الألوف من القرّاء العرب الذين يحبّون الشاعر حتى العشق، ويَدْعون اللّه أن يُنقذه ويشفيه. وقد تأثّرتُ شديد التأثّر لدعوة «نادي العشرين» في لبنان إلى إضاءة الشموع وتلاوة الصلوات في «كنيسة سيدة لبنان» في حريصا من أجل نجاته، وعزمتُ على التوجّه إلى الكنيسة للمشاركة في ذلك الحدث، ولكني أصبتُ بوعكة صحيّة حالت دون ذلك.

وقضيتُ أيّاماً ولياليَ مؤرّقة، أبلغني بعضُ الأصدقاء على أثرها أنّهم رأوني مراتٍ خلالها وأنا أبكي كلما ذكرتُ نزاراً، وهو في غرفة العناية الفائقة، أو ذَكَرَهُ أحدٌ أمامي... الى أن مَنَّ اللّهُ عليه بالشفاء.

ورحتُ أبحثُ في ذاكرتي ومذكّراتي عن تفاصيل علاقتي بنزار..

* * *

تربطني بنزار قباني صداقةٌ انعقدتْ بيننا منذ زهاء خمسين عاماً لم يعكّرْها وهَنٌ أو جفاء، وهي أطول صداقة لي بأديب وأعمقها وأصفاها. وقد قامت، من جانبي، على إعجابٍ كبيرٍ بشاعريّته، تمتزج بتقدير كبير لخُلُقه؛ ونادرون جداً هم المبدعون الذين يجمعون الأمرين كليهما.

وحين أعود إلى رسائل نزار أجدني استقبلتُ إنتاجه في الصحف اللبنانية التي كنت أتعامل معها استقبالاً حارّاً، ورحّبتُ به الترحيبَ الذي ما زلتُ حتى اليوم أقابله به: على أنّه «مدرسة» عظيمة في الشعر العربي، يتتلمذ عليه الكثيرون من غير أن يبلغوا درجةَ العبقرية التي بلغها.

وقد بدأتْ هذه الصداقةُ بعد أن نشرتُ في جريدة **بيروت المساء** مقالاً عن قصيدة **سامبا** التي أصدرها نزار في كرّاس صغير. وفي الرسائل، التي أحتفظ بها، واحدةٌ أرسلها لي من أنقرة، حيث كان مستشاراً في السفارة السورية، بتاريخ ١٩٥٠/١/٦، وكنت في باريس أُعدّ لشهادة الدكتوراه، أقتطف منها ما يلي:

«كنت أعرف من قبل أنّ من الشِّعر ما يُرْقِص، وأنّ لبعض القوافي إمكانيّاتِ العُودِ وقدرةَ الترقيص. ولكني لم أكن أعرف أنّ النثر يستطيع أن ينفض الخصر وأن يُحطّمه ويهدمه، حتى كتبتَ نقدك!

«إنّ نقدك للشعر يعجبني، لأنّك تعيش هذا الشعر وتندمج فيه اندماجاً يكاد يكون فناءً! لقد ذُبْتَ في ضمير الوتر، وفنيتَ في دمدمة الطبول، ولوّنتَ بجروحك جروحَ الكمان(...) فاذا بنا لا نلتفت إلى البرازيل حيث وُلدتْ هذه الرّقصةُ الخاطئة، وإنما نلتفت إلى أعماقنا حيث تنهمر **سامبا** بلون الغريزة المشتعلة والرغبة الشّرسة. وإذا كلُّ عرقٍ من عروقنا جوقةٌ بصنوجها ودفوفها، وإذا الدمُ الذي يدفق في فراغ هذه العروق يرضع من ثدي **سامبا** الرقصةَ التي رضعت من حليب أفعى!

«هل تعرف، يا سهيل، أنك أوّل ناقد في الأرض تَعَلَّمَ موضوعَ الكتاب الذي سينقده حتى لا يَظْلم الكتابَ الذي سينقده بجهله وتجنّيه؟ وهكذا، فلقد أبيتَ أن تمسك **سامبا** بيديك قبل أن تعرف خصائصَ هذه الرّقصة وغواياتها وتثنّيها و«حركةَ الطيّ» فيها، وقبل أن تختبر بيدك وثغرك وذراعك وشهوتك هذه الرقصةَ التي تنفجر كأعواد الكبريت وأفواه البراكين!

«وهكذا كان.. حين وصلتك **سامبا** على الورق، كانت راحتُك قد أزهرتْ تحت إلحاح الخصر الهضيم ونخوةِ الحَلَمَة المراهقة وانسفاح الشَّعرِ الأشقر. وكنتَ قد أحطتَ بأغوار هذه الرقصة، دَفْعِها وَجَذْبِها، طيّها ونَشْرِها، لينها ووحشيَّتِها... حتى إذا جلستَ إلى ريشتك لتنقد، كان كلُّ شيء حاضراً لديك: الطِّيب في أنفك، وبقايا الخصر وامتلاؤه على ذراعك، وحفيفُ «التول» الأسود في مسمعك، ونقرات الخاصرة الغنوج ترنّ على صفحة أعصابك، وطعناتُ النهد المفضّض تُورِق على ضفاف قميصك...».

* * *

كان لهذه الرسالة التي تلقّيتُها في باريس من نزار قباني أثر عميق في نفسي، وقد ملأتني اعتزازاً وشجّعتني على مواصلة العمل النقدي، فأخذتُ أمارسه فيما كنت أكتب القصة والرواية.

وكان في الدراسات التي قمتُ بها دراسة مقارنة بين قصيدتين لنزار قباني وسعيد عقل أُلقيتا في مهرجان تكريم طه حسين في القاهرة عام ١٩٧٥. وملخّص هذه الدراسة يحمل تقييمي لشعر الشاعرين على النحو التالي:

«تُشْرَبُ قصيدةُ نزار قباني كالماء الزلال، تُرشَفُ أبياتُها بعذوبة لأنّها متفجّرة من نبع التدفُّق والطبعيّة. إنها كالشجرة الغضّة، تستمدُّ نسغها من تلقائيّة الجذور السمحاء، وعفويّةِ الأرض المعطاء، بعيدة عن أيّ تصنّع، وإن لم تكن بعيدةً عن الصنعة الفنيّة. أما قصيدة سعيد عقل فيغصُّ بها الحلقُ، ويُصاب منها اللّسان بالتقبُّض والمرارة. ذلك أنّ القارئ مضطرٌّ إلى مصارعة عباراتها وصولاً إلى مقاصدها، فيكاد ذلك يخلّف لديه الصُّداع. ومردّ هذا أنّ الشاعر لا يتوسّل إلى معانيه المفردةَ الواضحةَ ولا العبارةَ الليّنة، فاذا شعرُهُ مطبوعٌ بطابع التعقيد اللفظيّ والمعنويّ في آن.

«نزار قباني في هذه القصيدة، كما في شعره كلّه، عموديٌّه وحُرِّهِ، يعتمد البساطة في اختيار الكلمة وتركيب العبارة. وهذه البساطة هي التي خلقتْ له ذلك الرّصيدَ من الشعبيّة الذي لا يدانيه فيه شاعر عربيّ معاصر.

«على أن تلقائيّة نزار تتمرّد على أيّة سطحيّة، وبساطته لا تتعارض والعمقَ، إذا كان العمق غنى الإيحاء والشفافية، وهذا هو المطلوب في الشعر(...). أما قصيدة سعيد عقل، فلغتها مَقْلع أحجارٍ تعوزه ذائقةُ الهندسة لدى التركيب. ولا يفهم متذوّقُ الشّعر كَلَفَ هذه الشاعر بالتعقيد وانصرافَهُ الكلّيَّ عن البساطة، من غير أن يَلْزم عن ذلك أيُّ عمق. فأنت إذا فككت هذه الأحجار وحلّلت مفاصلها خرجتَ بصورٍ قد تكون ميزَتَها الأولى المبالغةُ في الشطحات الخيالية والبهلوانيةُ في البناء التركيبي. ولكنّ أثرها لدى المتلقّي بعيدٌ عن أن يكون عميقاً (...). إنّ تعمُّد التعقيد في تركيب هذه الأبيات النموذجيّة يذهب بكل جمال الشعر والشاعريّة. فكيف إذ كان شطحُ الخيالِ في تماديه يوحي لدى كلّ صورة بمجانيّة الفانتازيا التي تحرّك ذهن الشاعر؟

«أما على صعيد الموضوع، فتُعتبر قصيدة نزار قباني شاهداً على العصر الذي يعيشه، نقصد هنا على المجتمع الذي يعيش فيه. وهو شاهد آخر يدلّ على أنّ هذا الشاعر يمدّ جذوره في أرض بلاده، ويغمس قلمه في أمراضها، ويُعمل مبضَعَهُ في آفاتها (حديثه عن سقوط الفكر في النفاق السياسي، وفضح التزلّف والخنوع لدى فئة من الكتّاب الجبناء الذين باعوا أنفسهم للشيطان). هذه الصيحة التي يدين بها نزار النفاقَ والتكسُّبَ والتزلّفَ تنضاف إلى صيحاته الكثيرة في تعرية المجتمع العربي، فتجعل منه شاعراً في طليعة الشعراء الرافضين الثائرين(...). إنه يقتحم الواقع ولا يخشى نَبْشَهُ وتجريحَهُ وتعريةَ فضائحه، فيشارك بذلك في خلق الأدب الثوري المناضل الذي هو اليوم طليعة إنتاجنا الحديث الذي لا تنفصل فيه الهمومُ الفنيّة في وجدان الأديب عن هموم الشعب والمجتمع. أما قصيدة سعيد عقل فبوسعنا أن نعدّها، بالمقياس نفسه، شاهداً على انقطاع صلة الشاعر بمجتمعه الحقيقيّ، بل هي شاهد على أنه يشوّه هذا الواقع في كثير من الأحيان، حين يكتفي بالتمجيد والتعظيم والتفاخر(...). إنّ التباهي الزائف الذي جعله سعيد عقل دَأْبَهُ وديدنَه في كل ما ينتجه يُفسد الأجيال اللبنانية، إذ يزهّدها بالكفاح والصراع من أجل مجتمع لبناني أفضل بعيدٍ عن الطائفيّة والإقطاع والإقليميّة والاستغلال».

* * *

يعتمد نزار قباني ما سمّاه «لغةً ثالثة» تأخذ من اللغة الأكاديمية منطقَها وحكمَتَها ورصانَتَها ومن اللّغة العاميّة حرارتها وشجاعتها وفتوحاتها الجريئة. ويقول الشاعر: «بهذه اللغة الثالثة نحن نكتب اليوم، وعلى هذه اللغة الثالثة يعتمد الشعر العربيّ الحديث في التعبير عن نفسه (...). إنّ اللغة الثالثة تحاول أن تجعل القاموس في خدمة الحياة والإنسان، وتبذل ما بوسعها لتجعل درسَ اللغة العربيّة في مدارسنا مكانَ نزهة،

لا ساحةَ تعذيب. تحاول أن تعيد الثقة المفقودة بين كلامنا الملفوظ وكلامنا المكتوب، وتُنهي حالةَ التناقض بين أصواتنا وبين حناجرنا(...). وبكلمة واحدة، رفعتُ الكلفةَ بيني وبين لغة **لسان العرب ومحيط المحيط**، وأقنعتُها أن تجلس مع الناس في المقاهي والحدائقِ العامّة، وتتصادق مع الأطفال والتلاميذ والعمّال والفلاّحين، وتقرأ الصحف اليومية، حتى لا تنسى الكلام...».

على أن أهميّة نزار قباني الشعرية تكمن في أنه يستعمل هذه اللغة في موضوعات «يلتزم» فيها قضايا الحياة العربية، معترفاً أنّ «حياد الأدب موت له»، ولذلك كان «متورّطاً» في جميع شؤون الوطن والأمة. وما يأخذه بعض النقّاد على نزار من أنه «يركب الأمواج» هو شديد التّفاهة، لأنهم يريدونه أن يبقى في ميدان المرأة الذي هو فارسها المجلّي، كأنّ هذا يُلزمه أن يطرح بعيداً قضايا المجتمع العربيّ الأخرى! ودحضاً لهذه التجزيئيّة يقول نزار «إنني أكتب عن المرأة وعن القضيّة العربية بحبر واحد، وأقاتل من أجل تحرير المرأة من رسوبات العصر الجاهلي، كما أقاتل من أجل تحرير الأرض من حوافر الخيول الإسرائيلية».

هذه الجرأة في مواجهة الواقع العربي مزيّة كبرى من مزايا نزار. وأسمح لنفسي هنا أن أستشهد بما كتبه الشاعر عن قصيدة «هوامش على دفتر النكسة»، التي كانت نموذجاً للشعر الثوريّ العربي، وكانت «المانيفستو الذي ضمّنتُه احتجاجي ومعارضتي». يقول نزار في كتابه الرائع **قصّتي مع الشعر**: «نُشرت القصيدة أوّل ما نُشرتْ في مجلة **الآداب** اللبنانية. ولم أكن متأكّداً حين دفعتُ القصيدة الى الصديق سهيل إدريس أنه سينشرها. فخطُّ سهيل إدريس القومي خطّ متفائل، وأحلامه العربيّة مُشْرَبَةٌ دائماً باللون الورديّ. لكنْ حين جاء سهيل إدريس إلى مكتبي ذات صباح، وقرأتُ له القصيدة، صرَخ كطائر ينزف: أنشرُها.. أنشرُها. قلتُ لسهيل: إنّ القصيدة من نوع العبوّات الناسفة التي قد تحرق مجلّته أو تعرّضها للإغلاق أو المصادرة.. وإنني لا أريد أن أورّطه وأكون سبباً في تدمير المجلة. نظر إليّ سهيل بعينين حزينتين تجمّعتْ فيهما كلّ أمطار الدنيا، وكلّ أشجار الخريف المتكسِّرة، وقال بنبرة يمتزج فيها الألم الكبير بالصدق الكبير: إذا كان حزيران قد دمّر كل أحلامنا الجميلة، وأحرق الأخضر واليابس، فلماذا تبقى **الآداب** خارج منطقة الدمار والحرائق؟ هات القصيدة!»... وأعطيتُه القصيدة. وصدقتْ توقّعاتي وتوقُّعاته.. إذ صودرت المجلةُ، وأُحرقتْ أعدادُها في أكثر من مدينة عربيّة... وجلسنا في بيروت، سهيل وأنا، نتفرّج على ألسنة النار، ونرثي لهذا الوطن الذي لم تعلّمه الهزيمة أن يفتح أبوابه للشمس وللحقيقة».

* * *

أردتُ أن أقدّم هنا شهادةً في نزار قباني، فأجدني قد قدّمتُ، في جزء كبير منها، شهادته الشخصيّة في شعره، وفي جزء آخر شهادَتَهُ فيّ كناقدٍ وصاحبِ مجلّة.

هل ينبغي أن أعتذر للقرّاء عن ذلك، أم أن أحكم، استنتاجاً، أنّ في مسيرة نزار ومسيرتي الأدبية تشابهاً بل تمازجاً يجعل شهادتنا تكاد تكون واحدة؟

نزار قباني!

حمداً لله على شفائك، لمزيد من الإبداع في العطاء والجرأة في الموقف!

بيروت